السودان بعد خمسة اعوام

(١) من القاهرة الى الشلال في ٢ ابريل

غادرت القاهرة مساء الاثنين في اول ابريل ووجهتي الخرطوم كأن غرضي اختبار حال السودان ابان الحر . ولم يكد القطر يصغر للسير حتى تردد في بالي ما يمكن ان يكون حديث الناس في سمرهم تلك الليلة — حفلة اللورد كتشنر واستعفاء ناظر الحقانية

اما الحفلة في حديقة المعتمد البريطاني فقد جمعت خلقاً كثيراً من كل امة من سكان القطر على اختلاف اجناسهم وازيائهم رجالاً ونساء ما عدا المصريات المحجبات . اجتمع هناك وجهاء العرب والقبط واليهود والترك والارمن والسوريين والانكليز والفرنسويين والالمان واليونان . كبار العلماء ونظار الحكومة واعضاء الجمعية العمومية وكبار التجار والملاك وضباط الجيش وارباب الصحافة وطنيون واجانب

هؤلاء يمثلون سكان القطر المصري فعلى مَ لا تكون الامة المصرية مؤلفة منهم كلهم لما استتب الامر لمحمد علي الكبير حسب السكان كلهم مصريين سواء كانوا قبطاً او يهوداً او عرباً او تركاً او ارمن او سوريين وعاملهم كلهم معاملة واحدة . فهل في دعوة العميد البريطاني لمحو هذه الامم ما يدل على رغبة الدولة المحتلة في شد اواصرهم وتكوين شعب واحد منهم تكون لهُ حكومة واحدة ومحاكم واحدة كما كانت سياسة العائلة المحمدية العلوية وكما اشار بهِ اللورد كرومر قبل مغادرتهِ هذا القطر . او حدث ما حدث عرضاً وليس وراءهُ غاية سياسية على الاطلاق كما هو المرجح . ولكن ما ضر الحكومة المصرية لو سعت وراء هذه الغاية فوحدت الامم المصرية ووحدت محاكمها

ولقد طُلب منا منذ بضع عشرة سنة ان ننشئ رسالة انكليزية لمؤتمر الاجناس الذي عقد في مدينة شيكاغو وقت اقامة المعرض العام فيها يكون موضوعها الامم التي يتألف منها الشعب المصري الآن او سكان وادي النيل فوضعنا طوائف السكان ونظرنا بعين الخيال الى ما لا بد من حدوثهِ يوماً ما حينما تتوحد هذه الطوائف وتصير شعباً واحداً كالشعب الاميركي . ولا نزال ننظر الى هذه الامنية بعين الامل وقد تحول الحوائل دون تحقيقها في عصرنا ولكن عشرات السنين ليست شيئاً مذكوراً في حياة الامم

اما ناظر الحقانية سعد باشا زغلول فقد توالت الاشاعات عن استعفائهِ منذ اشهر وكان

البعض يؤكدون وقوع ذلك وتعيين الخلف لكن الاستعفاء لم يقع الا منذ يومين والخلف لم يعين حتى الآن

وللناس في هذا الاستعفاء مذاهب . فالذين يقتصرون عادة على النظر الى ظواهر الامور لان اشغالهم لا تمكنهم من التفرغ للنظر الى بواطنها يعللون هذا الاستعفاء طبعاً بأول تعليل يتبادر الى اذهانهم كما عللهُ بعض الاجانب حيث قال

« ان قبول سعد باشا زغلول وظيفة ادارية والقيام باعبائها ليس مما يسهل على من كان مثلهُ من رجال القانون فان من شب وشاب في المحاكم وجعل درسهُ و بحثهُ وادلتهُ واحكامهُ قواعد القانون وقيودهُ لا يسهل عليهِ ان ينظر الى الامور كما ينظر اليها رجال الادارة و يتصرف فيها بطرق عرفية او بحسب ما يتراءى لهُ . واني اوضح ذلك بالمثل الآتي

« مأمور مركز ارتكب امراً يعاقب عليهِ القانون واخبر القاضي سرًّا بما ارتكب ثم رفع امرهُ الى القضاء فانكر ولم يستطع احد ان يأتي ببينة على ارتكابهِ فالقاضي العامل بالقانون يضطر الى تبرئتهِ ولا يخفى ان تبرئتهُ في هذه الحال هي في مصلحة الجمهور لان تبرئة من لا تقوم الادلة القاطعة على ادانتهِ اقرب الى العدل واصلح للاجتماع ولكن اذا علم ناظر الداخلية ان ذلك المأمور ارتكب ما يستحق التأديب لاجلهِ سهل عليهِ ان يقاصهُ بنقلهِ الى مركز احط شأناً من المركز الذي كان فيهِ ولو لم يحاكمهُ . وفعلهُ هذا صواب ولازم للمصلحة العامة لزوم تبرئة القاضي لهُ

« وكنت اظن انهُ يصعب على سعادة سعد باشا زغلول ان يجري مجرى رجال الادارة بعد ان اعتاد الحكم بالقانون وفاق في احكامهِ الاقران فصدق ظني لانهُ تعب جدًّا وهو يتولى نظارة المعارف حتى كاد يظن عدم الاخلاص في بعض المشتغلين معهُ لانهم يتصرفون تصرفاً اداريًّا فيهِ نوع من الاستبداد في نظر رجال القانون ولعلهُ رأى هذه الصعوبة عينها في نظارة الحقانية او ما يتعلق بها فاستعفى »

واما الذين لا يقتصرون على الظواهر بل يبحثون و يعلمون من حقائق الامور ما لا يعلمهُ سائر الجمهور فيقولون ان لهذا الاستعفاء اسباباً اخرى خارجة عن التربية القانونية او الادارية وصادرة عن العلاقات الخصوصية المنحصرة بين الامارة والحكومة ومهما يكن السبب الذي دعا الى استعفائهِ فالبلاد لا تزال تحسبهُ من رجالها النابغين الذين تنتظر منهم خدمتها

***

خطرت هذه الخواطر ببالي وانا انظر الى البدر قبل ان اعتراهُ الخسوف وانتضح بسيم

مصر الطويل قبل ان اصل الى حرور السودان اللوافح . ولما وصلنا الاقصر كان الهواء لا يزال بليلاً منعشاً ولكننا لم نكد نغادرها بقطر اصوان حتى اشتد الهجير وهاج العثير وجعلت المركبات تتراوح بنا كالارجوحة فحرمتنا الراحة . وانقضت ساعة بعد ساعة والحر يشتد والغبار يثيرهُ القطر وتلعب بهِ الرياح فيسد منافس الفضاء الى ان دنونا من كوم امبو فصلحت الحال جدًّا

عهدي بهذه الارض صحراء قاحلة رأيتها كذلك وقت الاحتفال بوضع حجر الزاوية في بناء الخزان اما الآن فصارت مروجًا خضراء . الزرع كلهُ في الصعيد قد احصد — شابت نواصيهِ فحُصد او قارب الحصاد . اما في كوم امبو فلا يزال اخضر نضراً لشدة خصبهِ . ولم يرق لي منظر القمح متهً كما راق منظر قصب السكر لان الاول يزرع في كل مكان في هذا القطر ولا يرجى امدادهُ الى الخارج اذا زاد عن مقطوعية البلاد واما السكر فسوقهُ رائجة في كل مكان ولا يصلح زرعهُ في هذا القطر الاَّ حيث توجد معامل السكر . فقد احسنت شركة كوم امبو بانشائها معملاً كبيراً للسكر وزرعها الكثير من قصبهِ كما احسنت بزرع القطن ايضاً لانهُ معما كثر فسوقهُ رائجة في الدنيا وهو مصدر ثروة مصر المالية وحبذا لو عممت زرع هذين الصنفين في كل اراضيها

ولاتساع الزراعة على جانبي الطريق قلَّت الخرور وانقطع العثير ورأينا حركة العمران بادية على كل ما حولنا . المال يصنع العجائب يحوّل الصحاري رياضاً غناء ويستخرج النبر من تراب الارض

وبلغنا الباخرة « سودان » بيد الهجير وهي من اكبر البواخر النيلية واجملها وانظفها وانا اكتب عن ظهرها هذه السطور لكي ارسل بها من حلفا

(٢) من الشلال الى حلفا في ٤ ابريل

اكام سوداه من كل ناحية في هذه البحيرة الصناعية غمر الماء اسافلها وعلا اعاليها وشمخت رؤوسها فوقهُ متنافرة مستقلة . وحنت سعوف النخل عليهِ بعد ان غيب جذوعها البواسق ورفعت ابراج انس الوجود هاماتها الى العلى تستصرخ الآلهة وتستنزل نقمتها على الذين اغرقوها واوردوها البلى . وسفينتنا تصفر هازئة بها والقطن يطلب المزيد من الماء ولو غمر الخزان الابراج والآكام . ولم يكن الاَّ هنيهة حتى انتصب سلطان الليل بنور يبهر الابصار في سماء خلت من الغيوم خلو اطلي من السموم فقرأ السطر الذي خُط امامهُ في تاريخ

مصر كما قرأ السطور التي خطت من سالف العصور في تاريخ هذا القطر من قبل ان ثارت البراكين في هذه الديار وسحقت صخورها القديمة وضجت منها صخور الصوان . ثم تعالى رويداً رويداً كأنهُ يطّلع على تواريخ الحوادث الطبيعية والتقلبات السياسية . ولما فاضت اشعتهُ على انس الوجود ولم يرَ فيها كاهناً يرقب طلوعهُ لم يعجب من غير الدهر لكثرة ما مرَّ بهِ من العبر

وبرد الهواء رويداً رويداً فانسانا حر النهار ولكن حركة السفينة في سيرها وتباح كلب لاحد الركاب ازالا راحة التوم . وقتنا في الصباح ودرجة الحرارة لا تزيد على العشرين وكنا نرى على الضفتين اكاماً عالية من الصخور والرمال واشجاراً باسقة من النخيل والدوم والسنط وزروعاً نضرة من القمح والحلس والخروع واللوبياء والماء تحتها كالمرآة تنعكس عن وجههِ صورها باشكالها والوانها حتى يكاد يلتبس الحقيقي بالخيال . والسواقي منتظمة على الجانبين تصعد قللها وتنزل كسجات مصلّ يتلو اورادهُ والناس يسيرون الهوينا بين زروعهم آمنين نوائب الدهر لا دراويش يغزونهم ولا حكومة تبتز اموالهم ونساؤهم يدققن بزر الخروع ويستخرجن زيتهُ ويدهنَّ بهِ رؤوسهنَّ فتطيب نفوسهم بالمجنهِ واخوانهم في القاهرة والاسكندرية يبعثون اليهم بتحاويل النقود الوفّ من الجنيهات كل سنة ومواشيهم تشبعهم من البانها . وحسبك من غنى شبع وريّ

* * *

معنا في السفينة رجل بلجيكي وجههُ بلاد الكونجو . كان فيها وهو راجع اليها الآن . فتذاكرنا في شؤون تلك البلاد ومما ذكرهُ لي عنها ان فيها ما لا ينزف من الخيرات ولو هاجر اليها عشرات الملايين من اهالي اوربا . وهو يقدّر عدد سكانها الآن بثلاثين مليوناً لكنهم لا يستعملون الأجزاء صغيراً من خيراتها . يستغلُّ منها اربعة مواسم من الثمرة في السنة بلا حرث ولا سماد . وغاباتها تفوق الحصر والوصف وفيها من شجر السنك (الصمغ العندي) مالا ينفد وشجر الكاكاو وشجر زيت النخل . وفيها البقر والضأن والمعزى ويكثر في غاباتها الثور الوحشي والاسد والنمر والفيل والكركدن والزرافة والأكابي . وقال انهُ رأى الاكابي مراراً فلا أدري كيف قال السرهري جنستن ان الاوربيين لم يروهُ حيًّا . وقد جُلبت اليها الخيل والبغال من جهات السنغال . ويحظر على السكان صيد بعض الحيوانات الكبيرة فيها كالاكابي والزرافة والكركدن الابيض الاَّ عدداً محدوداً منها ويحظر عليهم ايضاً شرب المسكرات الاوربية لكثرة تولعهم بها اذا شربوها

وفي البلاد كثير من الاجام لكثرة وقوع الامطار فيها وكثرة منخفضاتها ولذلك يكثر فيها البعوض وتكثر الحيات . فاخبرتهُ ان حكومة السودان لاشت البعوض من الخرطوم بالبترول والمراقبة المستمرة وشرحت لهُ كيفية ذلك وابنت لهُ انهُ لا يتعذر على حكومة الكونغو ان تحذو حذوها ولو في بعض المدن والقرى . فوعد ان ينظر في الامر واكد لي ان ما تقولهُ الجرائد الانكليزية عن سوء الاحكام في بلاد الكونغو وارهاق السكان بعيد عن الصحة لكنهُ يحسب ان البلجيك اتعب لغيرها وان مستقبل تلك البلاد الواسعة لانكلترا وفرنسا والمانيا . والسمك الكبير يأكل الصغير ومن يدري ان بلجيكا نفسها لا تصير لغيرها على توالي الايام

واشتد الحر رويداً رويداً الى ان بلغ الدرجة الخامسة والثلاثين بعد الظهر وانا انتظر الدرجة الخامسة والاربعين في الخرطوم فلم أرَ الآن سبيلاً للشكوى . ومررنا على دنقوره وكورسكو وابريم وطشكي الى ان وصلنا الى ابي سميل . وكثيراً ما كانت السفينة ترتطم بالرمل مع ان ادارة الوابورات النيلية نصبت في الطريق ادلة تسمَّى شمندورات وهي صلبان من الخشب متصلة من اسفلها بقضيب من الحديد مغروز في قاع النيل بين الماء العميق والرقارق وفوق كل صليب علم صغير ولكن رمل الرقارق ينهال احياناً الى الاماكن العميقة فترتطم السفينة بهِ وللحال يبادر خمسة او ستة من البحارة الى مقدمها بمدارينهم يجسون الارض ويدفعونها الى ان ترتفع السفينة وتجري . وقد يخلع رجل منهم ثيابهُ ويمشي امامها في الرقارق والماء يغمرهُ الى عنقهِ ليدلها على الاماكن التي يجب اجتنابها

وكان وصولنا الى ابي سميل قبيل الساعة الخامسة بعد الظهر فرست الباخرة هناك قصد المبيت ونزلنا الى البر وزرنا الهيكلين . لما زرتهما منذ خمس سنوات رست الباخرة الى جانبهما تماماً اما الآن فقد تكوَّن بينهما وبين مرساها ارض واسعة مرتفعة كثيرة الخصب كما يظهر من نضارة زرعها وقد ازين الرمل كلهُ من امام الهيكلين فبان الصخر الذي امامهما وكشف السور القديم الذي يحيط بحرمهما وهو مبني بالطوب (اللبن) وطولهُ كبير متين متماسك مرت عليهِ القرون ولا يزال على حالهِ . وبنيت لهما درج من الحجر الوردي الجميل ونصبت امامهما التماثيل والنصب التي كانت مرمية ومطمورة ووضعت فيهما الاسلاك الكهربائية لكي يتارا بها اذا استطاعت السفينة ان تدنو منهما وتوصل كهربائيتها اليهما . كل ذلك ترغيباً للسياح في المجيء الى هذه الاماكن . فوقفت حيث وقف رمسيس الكبير ورأيت وصف بنتور لحروبهِ في بلاد الشام ولا ادري هل بلغ الغرور منهُ ان صدق ما نعتهُ

بو شاعره وقلقه به اعوانه او علم انها كلها حيل من الكهنة للتسلط على الرعية واخاديع من رجال الدولة يراد بها حفظ بيضة الملك كما يفعل الساسة في هذه الايام

والميكلان من اعظم الآثار المصرية واعجبها فلا يعذر من يستطيع زيارتهما ويحجم عنها — ثم اكد اصل الى هذه الكلمات حتى سمعت رفيقاً لي يناديني ويقول التمساح التمساح فالتفت واذا امامي حيد من الصخور وعلى واحد منها تمساح كبير لا يقل طوله عن مترين وهو متجه الى البر مرت به السفينة على بضعة امتار منه فلم يعبأ بها ولا التفت الينا وكان امان حاله يقول البلاد بلادي والنيل وطني فلا يهمني مجيء هذا الاجنبي

وقفنا في الصباح وعاودنا السير والسفينة ترتطم هنيهة ثم تجري والخضرة تغطي الضفتين الا في ما ندر وبيوت السكان بين النخيل واظنها كلها من الطوب لكنها حسنة المنظر اكبر من اكواخ الفلاحين الا اذا كانت مجموع اكواخ كثيرة كالعزب · والتلال وراءها تمر مر السحاب الى ان رست السفينة بنا امام حلفا ظهر الخميس والثرمومتر على ثلاثين درجة تماماً

(٣) السودان في خمس سنوات

لما وصلت الخرطوم قابلني محرر جريدتنا السودان وطلب مني ان اكتب له مقالة وجيزة عما رأيته من دلائل الارتقاء في زيارتي هذه بعد زيارتي الاولى فكتبت السطور التالية

اذا ارتقت البلاد بسعي اهلها من غير مساعدة اجنبية بخمس سنوات ليست شيئاً مذكوراً في حياة البلدان ولا في حياة العواصم حتى يظهر فيها فرق كبير واما البلاد التي يساعد اهلها رجال ألفوا الارتقاء واعتادوا النظام و بلغوا درجة عليا من استخدام اساليب العمران فانها قد ترتقي بمساعدتهم في بضع سنوات ما يفوق ارتقاءها الطبيعي بسعي اهلها وحدهم ولو قضوا فيه مئات الاعوام كما حدث فعلاً في بلاد السودان · فان الذين تولوا ادارتها استعملوا فيها من الوسائل ما لا يقل عما يستعمل في انكلترا وفرنسا والمانيا مما وصلت اليه تلك البلدان بعد تعب مئات من الاعوام وامتعانوا بعقول بعض النابغين من اهلها ومن غيرهم من الشرقيين فكانت النتيجة ما يرى فيها الآن من التقدم السريع

حالما غادرت الشلال ركبت الباخرة « سودان » احدى الباخرتين الجديدتين اللتين بنتهما الحكومة السودانية في حلفا بعد زيارتي الاولى فشعرت كأني في سفينة من سفن مجيرة جنيفا في سويسرا · ورأيت وسائل الحضارة والرفاهة متوفرة في غرف النوم والجلوس والاكل والغسل والاستحمام — رأيت النور الكهربائي وادوات الاكل الفاخرة والخدم وهم

من البرابرة بثياب نظيفة وتأدب تام كأنهم في فندق من اكبر فنادق مصر . حتى اذا وصلت الى حلفا رأيت ان قد بُني لها رصيف جديد من الحجر النحيت يزين منظرها . ولا تزال شوارعها تكنس وترش كما رأيتها قبلاً . ورأيت فيها بعض المباني الجديدة ولكن الذي استوقف نظري هذه النوبة لان لهذا الشأن الاكبر في ارتقاء البلاد قطيع من البقر رأيته نازلاً ليرد الماء من النيل وقيل لي انهُ ثيران أُتي بها من اعالي السودان لترسل الى مصر وتباع فيها للذبح . ولا يخفى ان التجارة من اقوى وسائل العمران وتحويل نبات المراعي الطبيعية الى لحم خفيف الوزن غالي الثمن بالنسبة الى النبات لمن افضل الوسائل الاقتصادية . ثم ان القطر المصري محروم من المراعي الطبيعية واراضيهِ ثمينة لا يحسن تركها لتربية المواشي فيضطر ان يجلب اللحم من بر الانضول ومن بلاد استراليا الشاسعة فاذا استطاعت بلاد السودان أن تقوم بحاجتهِ من هذا القبيل افادتهُ واستفادت وفائدتها اكبر من فائدتهِ لان تجارة الصادر هي الاساس الحقيقي الذي تبني عليهِ ثروة البلاد ويبنى عليهِ ارتقاؤها . ورأيت ساحة الجمرك غاصة بالبضائع من الصادر والوارد و بلغني من احد مفتشي سكة الحديد السودانية ان الصمغ العربي الذي يراد اصدارهُ من بلاد السودان تراكم في محطاتها بعد فتح سكة الابيض حتى زاد عما يمكن نقلهُ بما لديها من العربات وهذا امر آخر جوهري لم يكن منذ خمس سنوات لا هو ولا سكة الحديد التي كانت سبباً لهُ . وعلمت من تقارير الحكومة السودانية ان قيمة صادراتها التي بلغت ٢٦٤٠٤٦ جنيهاً فقط سنة ١٩٠٦ بلغت ٩٧٧٦٢١ سنة ١٩١٠ و١٣٧٦٩٥٧ سنة ١٩١١ . فهذه الزيادة المستمرة في قيمة الصادرات اقوى دليل على النمو الحقيقي والارتقاء المستمر وعلى ان الاموال التي أُنفقت في السودان على انشاء السكك واصلاح الادارة وحفظ الامن هي رأس مال يثمر الآن تجارياً عدا ما لهُ من التأثير في احوال السكان الادبية والمعاشية

وقام القطر بنا من حلفا الساعة الثالثة بعد الظهر اي في اشد ساعات النهار حرًّا ولكن اتفق ان الحر كان معتدلاً في ذلك النهار فلم اتعب بهِ غير ان الخط من حلفا الى ابي حمد ليس على ما يرام وعسى ان تتمكن الحكومة من ابداله قريباً كما فعلت بقيتهِ الى الخرطوم فان الفرق بين القسمين كبير جدًّا في راحة الركاب ولا بدَّ من ان يكون لهُ تأثير كبير في عمر المركبات واستئناف قوة القاطرات يوجب المبادرة الى ابدال ما لم يبدل من باب اقتصادي

والمتقدم الذي رأيتهُ في الخرطوم يعد زيارتي الاولى كبير جدًّا اهم مظاهره هذا الكبري العظيم الكبير النفع الذي اجتمعت فيهِ معارف مهندسي اوربا واميركا منذ خمسين سنة الى

الآن . وقد رأيت انهُ تمّ بناء الجناح الغربي من كلية غوردون و بنيت الاسبتالية الملكية والمدرسة الابتدائية ووسعت مدرسة الصنائع وتمّ بناء نظارة الحقانية وديوان الري ونادي الجنود الانكليزية وكثير من المنازل والفنادق والكنائس واهمها الكاتدرائية الانكليزية التي اجتمع فيها من المهارة الهندسية والاتقان الفني ما هو حري بعاصمة كبيرة . وغرست الاشجار في الشوارع ورصف كثير منها ووزعت الكهربائية على البيوت ووزعت عليها المياه فكثر انشاء الحدائق جولاً وامتراح نظر الرائي بوقوعهِ على الاشجار الخضرة بعد ان كان يرى رمالاً فاحلة

وقد زرت ام درمان في هذه النوبة عن طريق الخرطوم البحرية فرأيت في الطريق اليها مدرسة للرسلين الاميركيين ومكاناً للنزهة ولا اتذكر انني رأيت شيئاً من ذلك في النوبة الاولى . ثم رأيت في ام درمان شوارع واسعة لم تكن من قبل ومخازن كبيرة وبالات الاقمشة مرصوفة امامها مما يدل على اتساع التجارة والرفاهة . ورأيت بعض البيوت الجديدة التي لا يصلح بيت الخليفة ان يكون اصطبلاً لها . وقد اعجبت بالنظافة التامة المرعية في سوق الغنم وفي كل الشوارع وامام كل البيوت وحولها . ومما راقني منظرهُ بنوع خاص تلامذة المدرسة الاميرية والبناء الجديد الذي يبنى لها فان ثياب التلامذة بيضاء كالثلج مع انهم خارجيون كلهم واكثرهم سودانيون . وكان بعضهم يتمرن على الالعاب الرياضية ونظهر عليهم الحماسة التامة في حركاتهم وسكناتهم . ولا يخفى ان نظافة الثياب وحب الرياضة من دلائل الاقلاع عن عادات الكسل والاهمال والتواكل التي خربت البلدان الشرقية ولذلك مرأى منظر هؤلاء التلامذة وأراني بارقة امل واسع بما تصير اليهِ حالة هذه البلاد اذا كثرت فيها المدارس التي من هذا النوع . والبناء الذي يبنى لها الآن من اجمل ما رأيتهُ في السودان ويقاربهُ بناء مدرسة البنات الانكليزية ومدرسة الصبيان الاميركية ومما من النفع وسائل العمران

هذا بعض ما رأيتهُ في هذه الزيارة وغني عن البيان ان الحكومة السودانية عملت اعمالاً كثيرة عظيمة في السنوات الخمس الاخيرة عدا ما اشرت اليهِ فانشأت سكة الحديد بين الاتبرة و بورت سودان وانشأت مرفأ بورت سودان البديع وهو وكبري الخرطوم من اعظم الاعمال الهندسية في افريقية . وانشأت سكة الحديد من الخرطوم الى سنار ومن سنار الى الابيض عن طريق كوستي وانشأت كبري كوستي . وكل ذلك من الاعمال العمومية اللازمة لارتقاء البلاد ماديا وادبيا . وهي تهتم الآن بعمل التجارب اللازمة لزرع القطن حتى

تعلم أصلح الازمنة لزرعه بحيث لا تضام مصر ابداً بنقص يقع في ماء الري . وقد بلغني من صاحبي السعادة سلاتين باشا و برنارد باشا ان متوسط محصول الفدان من القطن الذي زرع بلغ اكثر من اربعة قناطير وفهمت منهما ان في النية انشاء ترعة كبيرة من سنار الى الكاملين لري القطن فاذا تم ذلك قلّت نفقات ريه واتسعت زراعتهُ في السودان فربح منها ربحاً كبيراً و بلغني منهما ومن غيرهما من الذين ذاكرتهم انني لو طفت في بلاد السودان لرأيت فيها كلها من دلائل الهمة وحسن الادارة ما رأيتهُ في عاصمتها فلسعادة الحاكم العام وكل الرجال العاملين معهُ فضل يعود نفعهُ عليهم ما توالت الازمان . انتهى

ثم عملت بعد كتابة ما تقدّم ان السفينة التي ركبت فيها من الشلال الى حلفا بنيت في حلفا . نعم ان آلاتها وادواتها أُتي بها من اوربا لانهُ لا ينتظر ان تعمل الآلات البخارية والكهربائية في القطر السوداني ولا في القطر المصري الآن ولكن البناء والتركيب والدهن كانت كلها في حلفا وكذلك مركبات النوم في سكة الحديد ركّبت في ورشة الاتبرة

والذي يرى المباني الجديدة في كل المحطات الكبيرة من حلفا الى الخرطوم و يرى على مقربة منها بيوت السكان القديمة لا يصدق انهُ يرى هذين النوعين من البناء في بلاد واحدة فانهُ لا نسبة ولا مشابهة بين مباني الحكومة ومباني السكان . الاولى من حجر اوقرميد او سمنت والثانية من لبن او طين . وحتى الآن لم يبنِ احد من الاهالي بيتاً يشابه مباني الحكومة ما عدا السيد علي الميرغني والزبير باشا وليس ذلك شأن الاجانب المقيمين في الخرطوم وام درمان من سوريين واوربيين و بعض المصريين فان المنازل والمخازن التي بنوها مثل مباني الحكومة في حسن رونقها ومتانتها وما استعمل فيها من مواد البناء . فهل يقتدي بهم اهالي السودان ويحذون حذوهم او يبقى الفرق شاسعاً بينهم و بين حكومتهم دلالة على انها ليست منهم ولا هم منها

(٤) كبري الخرطوم وزراعة السودان

كلما كتبت كلمة « كبري » نبا قلمي عنها وودّ ان يكتب كلمة جسر بدلاً منها وهي الكلمة العربية الفصيحة ولكن ما الحيلة واكثر اهل مصر لا يفهمون بالجسر الاّ التراب القائم على ضفتي النيل وعلى ضفتي كل ترعة فنضطر الى مجاراتهم في استعمال كلمة غير عربية دفعاً للالتباس

دخلت الخرطوم منذ خمس سنوات عابراً النيل (البحر الازرق) اليها بسفينة بخارية ودخلتها الآن بسكة الحديد على كبري من اعظم الكباري . لم يكن هذا الكبري او الجسر قد

اقيم لكن كان الاتفاق قد تمّ على اقامته ثم شرع المقاولون في العمل في اواخر تلك السنة

طول الكبري ١٨٣٥ قدماً وهو مؤلف من سبع قناطر كبيرة من الحديد بل الفولاذ قائمة على اساطين ضخمة من الفولاذ . وبين القناطر والاساطين فرش مستو تجري عليه سكة الحديد على جانب منهُ والمارّة على الجانب الآخر وبينهما طريق ثالث للترام البخاري . ولهُ في احد طرفيهِ غلق طولهُ ١١٠ اقدام ونقلهُ الف طن يرتفع قائماً بآلتين كهربائيتين قوة كل منهما ٦٠ حصاناً فتمر المراكب من تحتهِ

وفي كل قنطرة من القناطر السبع ٥٣٣ طناً من الفولاذ ويبلغ ثقلها مع فرشها ٨٠٠ طن . واساطين الفولاذ التي تستند عليها القناطر غائرة في الارض الى عمق عظيم يبلغ احياناً ٨٣ قدماً تحت سطح الماء ولا يقلّ غورها في الارض عن ستين قدماً . وقطر كل اسطوانة منها ١١ قدماً من اعلاها و١٦ قدماً من اسفلها وثقلها ١٢٠٠ طن وهي مجوفة ومملوءة بالخرسانة

وقد لقي منشئو هذا الكبري اشد المشاق في انشائهِ لان النيل الازرق من اعمق الانهار واغزرها فيضاناً واشدها قوةً واتفق انهُ فاض فيضاناً غير عادي سنتين متواليتين فجرف جانباً مما بناهُ المقاولون لكنهم تغلبوا عليهِ اخيراً واتموا عملهم فجاء آية في الفخامة والمتانة . وتجري على هذا الكبري الآن سكة حديدية مفردة ولكن فيهِ متسع لسكتين وهو مثل سائر الاعمال الهندسية العظيمة التي ينظر فيها الى مستقبل السودان حينما تصير الخرطوم عاصمة مملكة واسعة كثيرة السكان والخيرات

***

اما الزراعة وهي الاساس الحقيقي لكل عمران فلم يتسع لي الوقت الضيق ان اشاهدها في غير ضاحية الخرطوم فسعدني الحظ الوجيه الحواجا عزيز كنوري لمشاهدة اطيان لهُ اشتراها حديثاً من شركة الكتريه مصر التي انفقت الاموال الطائلة على اصلاحها وهي ١٥٠ فدان في ضواحي الخرطوم يسير بحار اليها وفيها وابوران لريها احدهما كبير جداً يدير مطحنة للحبّ الحنطة ومعصرة لعصر السمسم والاخر صغير وكان يرفع الماء حينئذٍ من النيل لري البرسيم

والزراعة التي رأيتها هناك هي القطن والبرسيم البلدي والبرسيم الحجازي

اما القطن فاكثرهُ جيد مما يبلغ محصولهُ في القطر المصري اربعة قناطير او خمسة وقد جنيت منهُ الجنية الاولى او الاولى والثانية . وعلمت بعد البحث انهُ زُرع في اوائل الصيف

الماضي ولما اشتد البرد في دسمبر ويناير وفبراير كان لوزهُ قد كبر ولم يفتح فمرَّت هذه الاشهر الثلاثة وهو على حالهِ وكان لا بدَّ من ريهِ فيها ولا يزال يروى حتى الآن فاقام في الارض عشرة اشهر او اكثر وروي من اول زرعهِ الى الآن سبعاً وعشرين ريَّة فبلغت نفقات زرع الفدان وريهِ نحو مئة جنيهات مع ان القطن في القطر المصري يروى ثماني ريات الى عشر فقط . واذا بكَّر في زرع القطن في السودان حتى يجني قبل اشتداد البرد وقع المطر عليهِ في الصيف وهو مزهر فاتلفهُ واذا زيد التبكير في زرعهِ حتى يجني قبل المطر وجب ان يزرع في الشتاء فيصير اكثر ريهِ من مياه الخلجان التي يحتاج اليها القطر المصري وهذا غير جائز الآن وعليهِ لا ارى سبيلاً لاتساع زراعة القطن في السودان الاَّ اذا جُمع فيها جانب من مياه الفيضان ليستعمل في ريهِ ولا يخسرهُ القطر المصري . الاَّ ان المستر مكلتوري اخبرني ان القطن الذي جرَّبت زراعتهُ في الجزيرة رُوي خمس عشرة ريَّة فقط او اقل فكفتهُ وزاد محصول الفدان منهُ على خمسة قناطير . فاذا امكن زرع القطن في مساحات واسعة من بلاد الجزيرة وامكن وجود الماء الكافي لريهِ من غير ان يمس الماء الذي يرد الآن الى القطر المصري وجاد هذه الجودة امكن ان تتسع زراعتهُ في السودان ويكون منها ربح وافٍ لان زرع مئة الف فدان في بلاد مثل السودان ليس بالامر الكبير واذا جني منها نصف مليون قنطار بلغ دخل البلاد منها مليوني جنيه . والتجارب جارية الآن في اكثر من الفي فدان من ارض الجزيرة وعسى ان تأتي بالنتيجة المطلوبة . ولا خوف من زيادة محصول القطن المصري والسوداني ولو زادا بضعة ملايين من القناطير لان المقطوعية آخذة في الازدياد . وحسبنا ان موسم اميركا الآن زاد على المتوسط نحو عشرين مليون قنطار ولا تزال سوقهُ رائجة

والبرسيم البلدي الذي زراعتهُ في اطيان الخواجه كفوري على غاية الجودة بعضهُ يجزُّ الآن وبعضهُ جزَّ دريسهُ . بعضهُ ترك ربَّة للبذار (التقاوي) . والاخضر والدريس يباعان طويل الجنود وكذلك ما جزَّ من البرسيم الحجازي . ولا شبهة ان زراعة البرسيم هناك رابحة جدًّا لان ما يجزُّ منهُ يزيد على حاجة المواشي اللازمة للزراعة يباع علفاً طويل الجنود ولكن هذه الحال لا تتيسَّر في كل مكان ولا بدَّ من الاعتماد على القطن والسمسم والقمح والذرة اي على ما يمكن اصدارهُ من البلاد . وبقي امر آخر وهو تدريب اهل السودان على الرغبة في الفلاحة والاعمال الزراعية عموماً حتى يعتادوا استئجار الاطيان من اصحابها والدأب على خدمتها كما يفعل الفلاحون في القطر المصري . فاذا تيسَّر ماء الري وقرَّن السودانيون على الزراعة فالخيرات كثيرة واجتناؤها ليس عسيراً